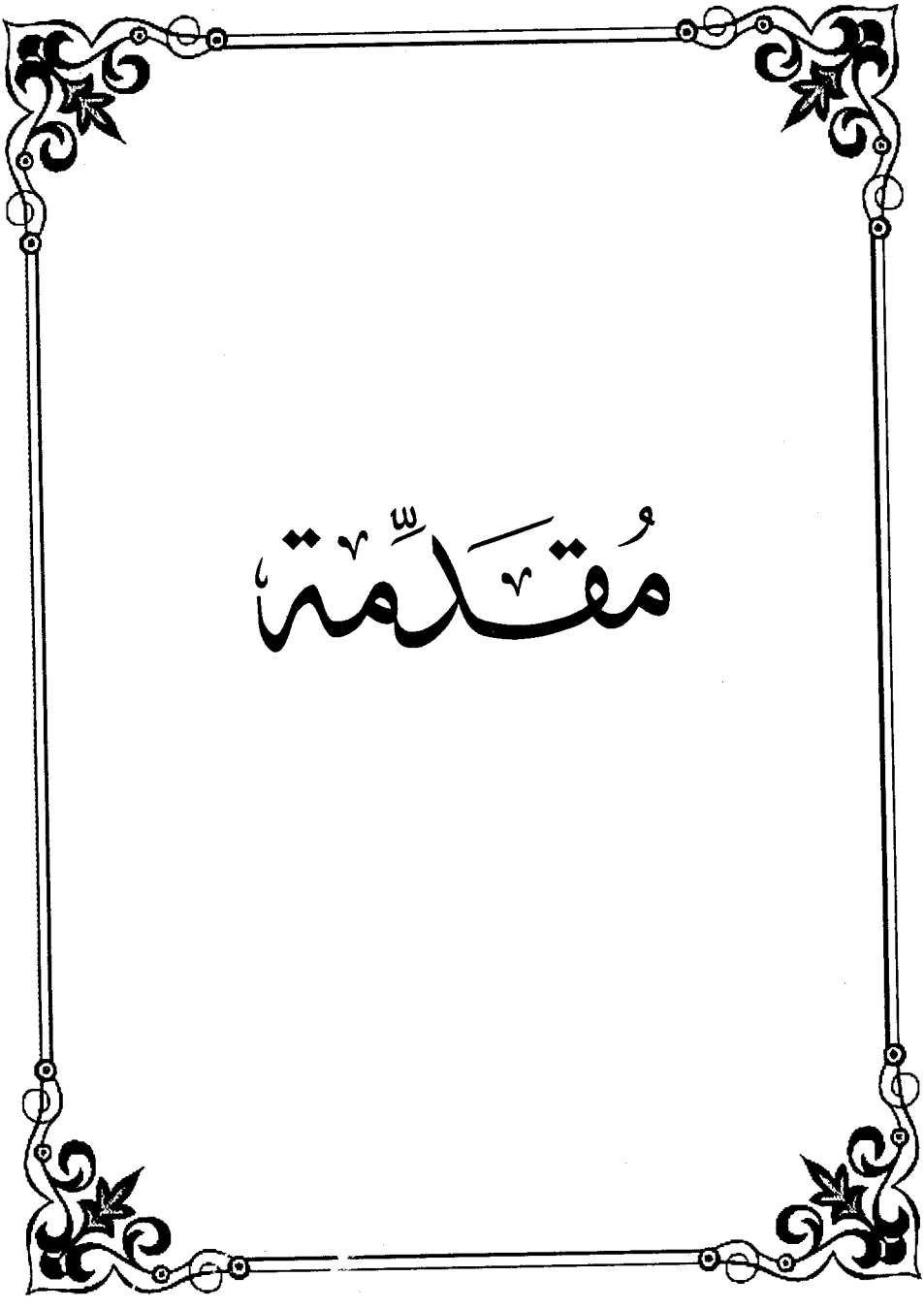

مُقَدِّمَة

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين .

وبعد :

تعتبر هذه الدراسة جزء من الموسوعة العلمية التي خَصَّصتُها للدراسات الدينية المقارنة ، وهي في موضوعها الجزئي تتعلّق بقضايا المنهج التحليلي النقدي. وقد أردت بها أن تكون بداية نواة عملية لمشروع أوسع ، ترصد له الإمكانات المادية والبحثية من طرف المؤسّسات العلمية والجامعية الإسلامية المتخصّصة ، على خلفية أنّ أغلب الدراسات التي قامت في هذا الإطار هي تكرار لما سبق نشره ، هذا إذا علمنا أنّها تهتمّ بالجانب الوصفي التّاريخي ، ولا علاقة لها بقضايا المنهج أو الدراسة المقارنية.

وقد قدّمتُ للموضوع بمدخل تمهيدي حول موقع الدرا ب المنهجية المقارنة ضمن مباحث العقيدة العامّة ، من خلال نماذج قرآنية تتعلّق بالموقف من أهل الكتاب خاصّة والمستكبرين عامّة ، وتنزيل ذلك ضمن إطاره العام من الدراسات القرآنية ، التي اختُزِلت غالبا في تقرير العقيدة الإسلامية من دون تبيين علاقات تلك الآيات بغيرها من الآيات التي فصّلت في عقائد أهل الكتاب والمشركين والدهريين. وهو جهد منقوص إذا وقفنا على فوائد العمل المقارني الذي يقدّم مقاربة عقدية متينة ، تكشف على المفارقة الجوهرية بين الحقيقة الإيمانية

كما جاء بها القرآن الكريم ، وهو المشترك الأصولي بين جميع الأنبياء والمرسلين ، وبين ما انتهت إليه العقائد الكتابية كما اختارها بولس وقرّرتها المجامع عند النصارى ، أو تلك المؤسّسة في ضوء الأفكار التلمودية والاجتهاد الحاخامي عند اليهود.

كما عقدنا فصلا خاصا بالديانات الوثنية ، قصد الوقوف على حركة تطوّرها التاريخي وانقسامها المذهبي. مجيبين على سؤال محوري يتعلّق بطبيعة علاقة هذه الديانات الوثنية بالوحي الإلهي ، لما تكشف عنه أبعادها الأخلاقية من نبيل القيم التي تدعو إليها ، وذلك في أسلوب مقارني يربط بين مختلف محاور الدراسة. ثمّ عقّبنا بمطالب نظرية هي من وحي الفصول السابقة ، تهدف إلى توضيح الموقف الإسلامي من قضايا وحدة الوجود ووحدة الأديان والدعوة الإبراهيمية الحديثة ، وكذلك إعادة النظر في مصطلح أهل الذمّة وما أثاره من جدل موجّه.

غير أنّ هذه الخلفية التفسيرية لم يقابلها من طرف الباحثين الإسلاميين أي عمل عميق ، يعرّف غيرهم من أهل الاختصاص بأهمية الجهد التأسيسي الإسلامي ، فيوضّح لهم تلك القضايا العقدية وما يتّصل بها من أحكام فقهية ، أي تنزيل القضية الفرعية ضمن السياق العام ، وليس بعزلها عن إطار فلسفة الإسلام العامّة وموقفه مثلا من أهل الكتاب أو أصحاب الأديان الأخرى ؛ لذلك فإنّ أغلب الكتابات الغربية مثلا حول مصطلحات أهل الذمّة أو نقد النّص الديني ، أو علاقة المقدّس بالتجربة الإنسانية ، تحمل في طيّاتها عدم معرفة حقيقية بجوهر الدين الإسلامي ، وأنّ معارف ذلك الطرف لا تتعدى حدود الثقافة العامّة التي لا تؤهّله للقطع في تلك القضايا.

وكان من المفترض أن يجيب الكاتب الإسلامي عن تلك الأسئلة المركزية ولا يتوقّف عن حدود وصف الحالة، الذي لا يمثّل في الحقيقة إلاّ جزء يسيرا من الإجابة. فالتاريخ الديني بالغرب تشوبه الكثير من الإشكالات المعرفية والصدامات الفكرية، فالذي يعتبره المسلم مقدّسا ولا يمكن تجاوزه ليس له نفس القيمة المعيارية عند الآخرين. وأوضح مثال قضية الرسوم الساخرة من نبي الإسلام محمّد ﷺ[1]. فقد عبّرت عن أمرين:

أوّلهما: عمق تعظيم المسلمين للنبي محمّد ﷺ ومدى حبّهم له، وفي ذلك دلالة على مقام النبوّة عندهم، يستوي في ذلك كلّ الأنبياء والرّسل بلا استثناء، بل هو شرط صحّة إسلام المسلم. وقد استنكر ذلك من المسلمين المتديّن والعلماني على حد سواء، لما يعتمل في قلوبهم من حسّ الانتماء لهذا الدّين.

وثانيهما: ضعف ذلك الوازع إن لم نقل غيابه عند الكثير من المفكّرين الغربيين. وسببه الميراث السلبي تجاه الدين والكنيسة وما عمّقته من كره للوحي ومبادئه ولمن جاء به. كما أنّ الدراسات الدينية في المؤسّسات الغربية ليست بحوثا تقويمية وإنّما نقدية بالأساس، ممّا شكّل وعي النخبة في اتّجاه هدمي نقضي واحد، لا يعترف بالغيب وسلطانه.

وأقصى ما نطالعه في المكتبة الإسلامية تصديرا جديدا عند طباعة بعض كتب التاريخ الديني، مثل كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي أو الملل والنحل للشهرستاني، وهما في الحقيقة أشهر من أن تعاد طباعتهما. فأغلب ما يكتب لم يتجاوز مقدّمات تعريفية مختزلة تكرّر نفسها. فما نحتاجه هو الإجابة عن سؤال جوهري: كيف نرسم حدود الدراسات الدينية

(١) صحيفة «Jyllands-Posten» الدنماركية، في عددها الصادر يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٥.

المقارنية الوصفية ، والدراسات الدينية المقارنية التقويمية في بعدها القرآني؟. أي بإعطاء الأولوية للبناء المنهجي النظري ، لمعرفة أنساق التحوّل عن المسار التاريخي للنبوّة ، وما انتهت إليه من تصوّر تفسيري يرتبط بشخص رجال الدين. وهو ما نعتبره الوجهة المستقبلية للدراسات الدينية المقارنة.

لذلك نعتقد ضرورة تهيئة الإطار المعرفي الذي تتنزّل فيه أيّ دراسة لها صلة بهذا الموضوع ، وربطها بالواقع الفكري والأبعاد الحضارية التي تنتمي إليها حتى لا تكون غريبة مسقطة ، وإلاّ فقدت قيمتها العلمية لعدم احترامها تلك الخصائص الذاتية أو لم تدخلها ضمن التركيبة المنهجية لمختلف عناصرها ، سواء المتعلّقة بالمباحث موضوع الدراسة أو بالطريقة البحثية المتوخاة في إنجازها. ولقد نبّهتنا التجربة المهنية في المؤسّسات العلمية بالغرب إلى حقيقة مهمّة مفادها أن ليس أيّ موضوع يصلح للكتابة ، وليس أيّة طريقة في الكتابة ومناقشة القضايا تقنع القارئ والمثقّف بالغرب ، وذلك لإلفه التحليل العقلي والبناء المنطقي للأشياء ؛ لذلك لا بدّ وأن تُتَّخذ تلك الخصائص المعرفية أداة ناجحة لتبليغ الرؤية الإسلامية لمختلف الإشكالات ، وتُعتَمد وسيلة ناجعة في البرهنة والإقناع ، بعيدا عن الحشو والاجترار والتكرار لنفس المعلومات القديمة ، خاصّة وأنّ طابع هذا المجال التجدّد على المستويين المنهجي والمعرفي. إذ تزخر المكتبات الغربية بالدراسات المختصة الحديثة ، ممّا يجبر الباحث على المتابعة اليومية ، وإلاّ عدّت أفكاره قديمة لا يُعتدّ بها.

وتحصيلا للفائدة وتوجيها إلى ضرورة التواصل مع الآخرين والاستفادة من تنوّعهم الديني والثقافي الحضاري ، فقد عقدنا مبحثا لمصطلح الحوار. جمعنا فيه

بين التعريف والمبادئ والحوار ، وأجبنا فيه على سؤال مهم يتعلّق بأدوات الحوار النّاجح والمثمر. قناعتنا في ذلك أنّ أيّ ثقافة إنسانية إنّما تحمل في طيّاتها ما يمكن أن تفيد به الهيئة الاجتماعية ، وتثري به الثقافة الإنسانية الجامعة. كما أنّ المسلم مكلّف بصريح القرآن الكريم أن يبلّغ للنّاس كافّة مضمون هذا الدّين الخاتم ، وأنّ ذلك لا يتمّ إلاّ بالحوار الذي هو وسيلة الخطاب الهادئ والنّاضج ، والذي من شروط توفيقه وأداء مهمّته الحكمة والموعظة الحسنة ، والتي تعني الجمع بين المعرفة ومنهج الخطاب.

وممّا يؤسفني كثيرا غياب أيّة محاولة جادة في هذا الإطار من طرف الباحثين المسلمين المختصين في هذه البلاد ، وقد انشغلوا بقضايا أخرى بحثا عن التوظيف المهني أو التحصيل المادي القريب ، إلى جانب أنّ عددا كبيرا منهم استهلكته الجمعيات الإسلامية وما لها من زخم جماهيري وإعلامي مؤقّت. كما أنّ المؤسّسات التعليمية الإسلامية الأهلية غلب على عملها الطابع الدعائي الإعلامي والتوظيف السياسي ، وحصرت نفسها في تعليم اللّغة العربية للناطقين بغيرها مع محاولة نشر الثقافة الدينية الأولية بين المسلمين ، ولم ترد تجشّم الصعاب بتوظيف النخب العلمية المسلمة ضمن خطّة علمية واضحة ، تزاوج بين الرصيد المعرفي الإسلامي وآليات العمل المنهجي الحديث.

وبمراجعتنا لخطاب جعفر بن أبي طالب ﷺ ، وهو يحاور النجاشي ملك الحبشة ، نجد أنّه غاية في الإقناع والتسليم ، وذلك لأسباب ثلاثة :

أوّلا : لتحرّيه الصدق في التبليغ .

وثانيا : لتركيزه على المشترك بين أهل التوحيد .

وثالثا : لقدرته على التبليغ والتوضيح والكشف عمّا يريد قوله للنجاشي ومن حوله ، وهو ما عنيناه بالمنهج في التبليغ. فكانت النتيجة الطبيعية أن أسلم النجاشي وقال: « **إنّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة** »[١] ؛ لذلك فإنّنا نرى أنّ دراسة تاريخ الأديان لا يمكن أن تكون ضمن تفاعل أحادي الجانب ، وفي إطار قراءة ذاتية منعزلة عن الواقع ، وإنّما تتمّ ضمن حركة الحوار المفتوح والمنضبط بشروط البحث العلمي الهادف ، وليس بالجدل العقيم والاتّهام المتبادل .

فحري بالمفكّرين المسلمين بالغرب أن يعيدوا ترتيب أولوياتهم الفكرية والبحثية ، بما يتّفق ومنطق الواقع ، حتى يكونوا جزء من الحاضر الذي تتشابك فيه المعارف على مختلف مشاربها ، والتي تحدّد موضوعيا هوية المستقبل وطبيعته. وأنّ ذلك لا يتمّ إلاّ بتحقّق شرط المشاركة الإيجابية ، وأخذ زمام المبادرة في اتّجاه تدارك النّقص الكبير على مستوى البحوث المختصّة والموجّهة ، لرسم ملامح حركة علمية مستقبلية تعتبر الشراكة سمتها البارزة. وانطلاقا من ذلك التصوّر النظري ، يمكن أن نعرّف بطبيعة الدّين الإسلامي: عقيدة وشريعة تنتظم كلّ صور الحياة ، على المستويين الفردي والجماعي ، ومدى أثر ذلك على السلوك والمظهر الإسلامي ، فلا ينفصل أحدهما على الآخر. وفي هذا الإطار يمكن إبراز قيمة الخصوصيات الدينية كحجاب المرأة المسلمة ، لا علاقة له بالمزايدات السياسية والترويج الإعلامي. على اعتبار أنّ هذه الأزمة المفتعلة إنّما هي بداية الطريق لمنع مظاهر الدين الإسلامي حتى في الطريق والأماكن العامّة ، وأقدّر أنّ

---

(١) تقي الدّين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر (و آخرون) ، دار العاصمة، الرياض، طبعة ٢ / ١٩٩٩، ١ / ٢٥٧.

تصريحات البابا الجديد ، وتغاضيه عن ذكر المسلمين تصريحا أو تلميحا في بيان تنصيبه ، وكذلك تراجعه عن سياسة سلفه البابا يوحنا الثاني المنفتحة على الآخر وخاصّة المسلمين ، إلاّ وتصبّ في هذا الاتّجاه. خاصّة إذا التقت هذه التوجّهات مع رغبات ورؤى دعاة الصدام الحضاري.

وإنّني أسأل الله تعالى أن ييسّر من أهل التخصّص من يقوم على هذه المهمّة العظيمة ، لسدّ فجوة معرفية كبرى. كما أتمنى أن يعتبر هذا الجهد نواة تأسيسية تجد صداها في الجامعات الإسلامية والمراكز البحثية المتخصّصة ، نحقّق انطلاقا منها التواصل المعرفي والبحثي ، والله من وراء القصد.

باريس ، الجمعة ١٠ صفر ١٤٢٧ للهجرة

الموافق ١٠ مارس ٢٠٠٦ للميلاد

*****